

بצלر إيلي جرجي الياس *

مستقبل الشرق الأوسط بين طموحات الدول الكبرى وتدابير كورونا

المنطقة الجيوستراتيجية الاخطر في العالم: الشرق الاوسط منذ 1945 لا تهدأ ابدا. بين فلسطين الصامدة وقدم قضيتها، والقضايا العربية المترابطة، وبين مخططات تركيا التاريخية، وامكانات ايران الحيوية، والرغبات العدوانية للكيان الاسرائيلي الغاصب، وخطط الدول الكبرى، ترسم اشكالية هذه المقالة: ما آفاق مستقبل الشرق الاوسط، بين طموحات الدول الكبرى وتدابير كورونا؟

لن يكون الوجود السياسي والعسكري الروسي موقتا في سوريا. فالطموحات الاستراتيجية الروسية تتخطى اللحظة التاريخية الانية. الرئيس بوتين باق في سدة القيادة لفترة طويلة، والرئيس الاسد تم انتخابه اخيرا لولاية رئاسية رابعة، وستبقى سوريا وحتى ايران في حاجة الى الدعم الروسي، وهو ما تحرص روسيا على الاستفادة منه الى اقصى الحدود عبر اتفاقات اقتصادية وعسكرية طويلة الامد. فبينما تحتفظ روسيا بعلاقات سياسية واقتصادية متينة مع العراق ومصر والمملكة العربية السعودية ودول الخليج، تطمح الى التعاون مع سوريا وتاليا مع لبنان للاستفادة من القدرات الغازية والنفطية الموجودة والمحتملة في البلدين، من دون ان يغيب عن بالها الخصومة الطويلة الامد بين محور الممانعة والكيان الاسرائيلي، فيما ستعتمد روسيا الى تنظيم مجال الخلاف بين الفريقين.

فهل تساهم روسيا في رعاية مفاوضات السلام بين الطرفين؟ تبقى القضية الفلسطينية بعد مرور 73 سنة على تأسيس الكيان الاسرائيلي الغاصب على ارض فلسطين الطاهرة، مفتاح الحل امام ازمت الشرق الاوسط المتواصلة واساس الحل، كما هو متعارف عليه، دولة فلسطينية مستقلة عاصمتها القدس، الى جانب الكيان الاسرائيلي. فمن خارطة الطريق، الى صفقة القرن، تعذر الوصول الى سلام عادل وشامل على مستوى القضية الفلسطينية المركزية، وما زالت امكانات السلام بين لبنان وسوريا من جهة والكيان الاسرائيلي من جهة اخرى ضئيلة، رغم كل المحاولات الاميركية، والسبب الاساسي التحيز الاميركي الفاضح لمصالح الكيان الاسرائيلي على حساب الحقوق الفلسطينية والعربية، ولطالما كان الاتحاد الاوروبي يدعم الخيارات الاميركية مع دعم روسي محدود. لكن بعد النجاح الروسي في سوريا، والرغبة الاميركية الواضحة بعلاقات ايجابية مع الاتحاد الروسي، خصوصا بعد تولي الرئيس جو بايدن سدة القيادة خلفا للرئيس السابق دونالد ترامب، ومع الفورة النفطية على السواحل الشرقية للبحر المتوسط، يبدو خيار تولي روسيا زمام المبادرة على صعيد

المنطقة الجيوستراتيجية الاخطر في العالم: الشرق الاوسط منذ 1945 لا تهدأ ابدا. بين فلسطين الصامدة وقدم قضيتها، والقضايا العربية المترابطة، وبين مخططات تركيا التاريخية، وامكانات ايران الحيوية، والرغبات العدوانية للكيان الاسرائيلي الغاصب، وخطط الدول الكبرى، ترسم اشكالية هذه المقالة: ما آفاق مستقبل الشرق الاوسط، بين طموحات الدول الكبرى وتدابير كورونا؟

رسمت كورونا معالم عالم جديد سيتجسد تباعا بعد نهايتها المتوقعة خلال سنة 2022. ابرز تجلياته، حرب باردة ثالثة توقعتها الصين والولايات المتحدة الاميركية على حد سواء بين المعسكرين التقليديين، لكن بصيغة جديدة: المعسكر الشرقي بزعامة القوة الاقتصادية الاولى في العالم اي الصين مع حضور بارز لروسيا، والمعسكر الغربي بزعامة الولايات المتحدة وحليفاتها المتجددة بريطانيا على ضوء البريكست، وبينهما اوروبا التي قد تلعب دورا وسطيا ذكيا بين المعسكرين. اما الشرق الاوسط، فيبدو حقل اختبار رئيسيا في هذه الحرب الباردة الاتية.

لكن، قبل رسم وتحليل خارطة السياسة والاقتصادية والاجتماعية المنتظرة للشرق الاوسط بعد نهاية كورونا، لا بد من الاشارة الى العلاقات الوثيقة بين الشرق الاوسط وشمال افريقيا على قاعدة التواصل والتعاون، ضمن جامعة الدول العربية بشكل خاص. بينما تعزز فرص التنسيق بين تركيا وايران على المستويات الجيوستراتيجية، يبقى الكيان الاسرائيلي امتدادا للعالم الغربي على ساحل المتوسط الشرقي.

اهتم الرئيس فلاديمير بوتين منذ توليه السلطة في روسيا الاتحادية مطلع سنة 2000، بالشرق الاوسط كمجال حيوي لروسيا، واتخذ الخطوات التالية: استيعاب الطموح التركي في شمال العراق وشمال سوريا على حد سواء، حتى في استغلال تركيا للخلاف التاريخي بين ارمينيا واذربيجان، واستطاع باعلى درجات الحنكة والدهاء تحويل تركيا من موقع الخصم الى موقع الصديق، والحفاظ على متانة التحالف الروسي - الايراني على امتداد المنطقة، وضمنا تأمين الاستقرار في العراق، ورسم الخطوط الحمر لمشاريع الكيان الاسرائيلي التوسعية في كل اتجاه. كان اهتمامه الاقصى بسوريا، حيث رعى منذ بدايات عهده وصول الرئيس بشار الاسد الى السلطة، ودعمه والنظام السوري الى اقصى الحدود خصوصا بعد انطلاق الربيع العربي، حيث تدخلت القوات الروسية بشكل مباشر لتأمين سيطرة

المفاوضات بين العرب والكيان الاسرائيلي ممكنا، وبدعم اميركي محتمل. قد يستطيع الروس بسبب تراكم خبراتهم الديبلوماسية وعلاقاتهم الشرق اوسطية، ايجاد حلول لتلك القضايا المستعصية. لكن في نهاية المطاف الاسباب المستجدة لاحتمال لعب الروس هذا الدور، هي اسباب اقتصادية في الدرجة الاولى، ولعل الاقتصاد في المدى المنظور يستطيع انجاز ما لم تنجزه السياسة وحدها سابقا.

ما اضعف موقف الولايات المتحدة الاميركية كحكم في منطقة الشرق الاوسط، هو انحيازها الكامل والمطلق الى الكيان الاسرائيلي. الجهود التي بذلتها واشنطن لاحتلال التفاهم بين الكيان الاسرائيلي وانظمة الخليج العربي، لن تغبر في الواقع الاستراتيجي كثيرا. فالمقاومة الفلسطينية باتت اكثر قوة وفاعلية، وخصوصا مع الدعم الايراني المتزايد لحركات المقاومة، ولم تعد الحرب العسكرية تشكل حلا للخلاف السياسي: اليمن مثلا. بعدما اختارت الولايات المتحدة الاميركية ان يكون خصمها الاقتصادي بعد نهاية زمن كورونا، الصين الشعبية، مع ما يقتضي ذلك من حشد امكانات مالية ووضع مخططات مستقبلية، تعززت فرص روسيا للعب دور الحكم بين المتخاصمين في الشرق الاوسط، مع دعم اميركي. يبدأ النجاح الروسي في حال لم يقع الروس في الاخطاء نفسها التي اقترفها الاميركيون، وثمة فرصة لتحويل منطقة الشرق الاوسط من ارض صراع عسكري واستخباري دائم ودام، الى مساحة صراع اقتصادي لديه الكثير من الايجابيات.

بعد حربين باردتين: الاولى (1947 - 1991)، والثانية (2000 - 2020)، اعتمدتا في منطقة الشرق الاوسط على المواجهات العسكرية والامنية في الدرجة الاولى، وكالة عن الصراع المباشر بين الجبارين الاميركي والروسي، ستظل الحرب الباردة الثالثة بعد زمن كورونا، مرتكزة على الصراع الاقتصادي والمالي والتجاري، بين معسكر شرقي تتزعمه الصين ومعها روسيا، ومعسكر غربي تتزعمه الولايات المتحدة الاميركية ومعها بريطانيا. ولعل الاتحاد الاوروبي يجيد لعب الدور الواسطي، فينتعش المجال السياسي الدولي. سيتضح الاشتباك الاقتصادي في مجالات عدة، في الشرق الاوسط، على سبيل المثال لا الحصر: ايران بين حلف استراتيجي مع روسيا واتفاقات اقتصادية متقدمة مع الصين - شراكة نحو المستقبل - ومفاوضات معقدة مع الولايات المتحدة. وتركيا على مدى من المفاوضات والاتفاقات المالية والعسكرية سواء مع الصين وروسيا او مع الولايات المتحدة واوروبا. والمملكة العربية السعودية كقطة جذب مالية بين المعسكرين، ولو ان الغلبة للاميركيين بنسبة معينة.

اذا سيلعب العامل الاقتصادي الدور الحاسم في انتاج الشرق الاوسط الجديد عبر سلسلة من الاتفاقات والاستثمارات في

المنطقة ترعاها الدول الكبرى في العالم والدول المتقدمة في المنطقة. وكان الذي يحدث في بعض بلدان المنطقة اليوم من اضطرابات سياسية وامنية او مالية واقتصادية، كلبان وسوريا والعراق، ما هو الا مقدمة لمرحلة من الانتعاش الاقتصادي المقبلة على المنطقة. ويبدو الصراع الاقتصادي محموم بين الولايات المتحدة الاميركية والصين الشعبية التي باتت المارد الاقتصادي الجديد بعد تعزيز قدراتها الاستثنائية على التعافي سريعا من تدابير كورونا، واعادة تفعيل العجلة الاقتصادية لديها، مع زيادة صريحة في الانتاجية. حكما سيكون الشرق الاوسط الجديد بعد كورونا، مسرعا رئيسيا لهذا الصراع الحاد، لكنه سيسمح في المقابل للبلدان المتعثرة ماليا في المنطقة الاستفادة من ذلك، لاعادة تصويب فرصها نحو ازدهار مالي ونجاح اقتصادي.

على ضوء ان يكون الشرق الاوسط مسرعا حيويا للصراع الاقتصادي بين الولايات المتحدة والصين، ومجالا لمبادرات سلام روسية بقصد فض معظم اشتباكات المنطقة، يعول كثيرا على دور الاتحاد الاوروبي عموما، وفرنسا والمانيا خصوصا، لانماء المنطقة ودعمها اقتصاديا وعمرايا. كما يرجح ان يتكامل الدوران الاوروبي والروسي، ولعل ذلك في مصلحة الشرق الاوسط. لن يكون الانكفاء الاميركي عن الشرق الاوسط شاملا، الا ان الاميركيين يتجهون الى التركيز على منطقة الشرق الاقصى كمنطقة صراع اقتصادي اساسية مع الصينيين.

بينما تساهم الاتفاقات الجانبية بين تركيا وايران والمملكة العربية السعودية ومعها دول الخليج العربي، في دفع المنطقة الى زمن السلام الشامل والازدهار الاقتصادي، على جامعة الدول العربية ان تلعب دورا مركزيا في تقريب وجهات النظر بين دول الشرق الاوسط سواء اكانت عربية ام لا. وبأني دور مصر اساسيا وطييعا، نسبة الى تاريخها العريق في المنطقة.

ثمة فرصة حقيقية، بعد زمن جائحة كورونا وتدابيرها الخطيرة، ورغم طموحات الدول الكبرى المعقدة، ان يكون مستقبل الشرق الاوسط الجديد ايجابيا مع تغليب احتمالات الحد الأدنى من السلام الشامل، ومن الازدهار الاقتصادي والتقدم المالي، على ضوء حاجات دول المنطقة وشعوبها الى الاستقرار والحيوية، وتحول الصراع العالمي الى اقتصادي ضمن الحرب الباردة الثالثة المفترضة، سينعكس على المنطقة تعزيزا لفرص السلام بقيادة روسية ودعم اوروبي ورضى اميركي.

اما قمة النجاح فهي القدرة على ايجاد حل عادل للقضية الفلسطينية التاريخية، عبر توثيق الدولة الفلسطينية المستقلة وعاصمتها القدس. فاذا نجح الروس في ذلك، سيكون اكبر انجاز سياسي وديبلوماسي في تاريخ الانسانية.